حروب الممرات البحرية من هرمز إلى باب المندب

بقلم: عمرو حلمي ○

يشهد الشرق الأوسط مرحلة جديدة من الصراع تختلف في طبيعتها عن الحروب التقليدية التي عرفتها المنطقة خلال العقود الماضية. فالمواجهة لم تعد تدور فقط حول الحدود أو النفوذ السياسي، بل أصبحت تتمحور بصورة متزايدة حول السيطرة على الممرات البحرية الاستراتيجية، في مقدمتها مضيقا هرمز وباب المندب، وهما شريانان حيويان للتجارة العالمية وأمن الطاقة والاستقرار الاقتصادي الدولي.

فالتصعيد المتجدد بين الولايات المتحدة وإيران يعكس خلافاً أعمق من مجرد النزاع حول البرنامج النووي الإيراني. إذ ترى واشنطن أن ضمان حرية الملاحة في مضيق هرمز يمثل ركناً أساسياً من النظام الدولي الذي تقوده، وأن أي تهديد لهذا المضيق يشكل تحدياً مباشراً لمصداقية القوة الأمريكية ولمصالح دول الخليج والاقتصاد العالمي.

أما طهران، فتنظر إلى المضيق باعتباره إحدى أهم أوراق الردع الاستراتيجية التي تمتلكها، ولهذا تبدو القيادة الإيرانية مستعدة لتحمل مخاطر التصعيد أكثر من قبولها بتآكل بطيء لقدراتها على الردع.

وفي المقابل، تجد الولايات المتحدة نفسها أمام معضلة معقدة. فهي لا ترغب في الانزلاق إلى حرب طويلة ومكلفة في الشرق الأوسط، لكنها في الوقت ذاته لا تستطيع السماح بترسيخ سابقة مفادها أن تهديد الممرات البحرية يمكن أن يتحول إلى أداة فعالة لفرض المكاسب السياسية.

وتكمن الخطورة في أن كلا الطرفين يعتقد أن الوقت يعمل لصالحه. فإيران تراهن على أن ارتفاع أسعار البترول واضطراب الأسواق العالمية سيدفعان واشنطن إلى العودة إلى طاولة التفاوض بشروط أكثر توازناً، بينما تعتقد الولايات المتحدة أن الضغوط الاقتصادية والعسكرية المتزايدة ستدفع طهران في نهاية المطاف إلى تقديم تنازلات جوهرية.

لكن الخطر الأكبر قد لا يقتصر على مضيق هرمز وحده؛ فإمكانية انخراط الحوثيين في موجة جديدة من التصعيد تضيف بعداً أكثر خطورة للمشهد الإقليمي. وإذا كان هرمز يمثل البوابة الشرقية لتجارة الطاقة العالمية، فإن باب المندب يمثل البوابة الجنوبية للبحر الأحمر وقناة السويس.

وفي حال تصاعد التوتر بين واشنطن وطهران فقد ترى جماعة الحوثيين أن المصالح الاستراتيجية الإيرانية تقتضي توسيع نطاق الضغط عبر تكثيف الهجمات في البحر الأحمر، بما يفتح عملياً جبهة بحرية ثانية في المنطقة. وقد يشهد العالم تحولاً من الحروب التقليدية إلى ما يمكن وصفه بـ«حروب الخنق الاستراتيجي» Strategic Strangulation Wars، حيث تصبح الممرات البحرية ومنشآت الطاقة والأصول الاقتصادية أهدافاً رئيسية للصراع.

وفي مثل هذا السيناريو، لا يتطلب الأمر إغلاقاً كاملاً لمضيقي هرمز وباب المندب لإحداث أزمة عالمية؛ فمجرد ارتفاع المخاطر الأمنية أو زيادة تكاليف التأمين والشحن كفيل بإحداث صدمات كبيرة في الأسواق الدولية.

ومن ثم، فإن التحدي الرئيسي لا يتمثل في احتمال اندلاع حرب إقليمية شاملة بقدر ما يكمن في خطر الانزلاق إلى حالة مزمنة من عدم الاستقرار، تتسم بتعدد بؤر التوتر وتكرار الهجمات المحدودة والتصعيد المتقطع.

وفي مثل هذه البيئة، تصبح البنية التحتية للطاقة والموانئ وخطوط الملاحة الدولية أهدافاً ذات قيمة استراتيجية متزايدة، بينما يتحول أمن الممرات البحرية إلى أحد أهم محددات التوازنات الجيوسياسية والاقتصادية في القرن الحادي والعشرين. والأخطر من ذلك أن استمرار هذا المسار سيدفع نحو مزيد من عسكرة المنطقة، مع زيادة الوجود العسكري في منطقة الخليج، بما قد يحول هذه الممرات إلى ساحات مواجهة شبه دائمة. كما قد يدفع القوى الاقتصادية الكبرى إلى تسريع البحث عن مسارات تجارية بديلة وإعادة صياغة استراتيجياتها المتعلقة بأمن الطاقة وسلاسل الإمداد.

ومع ذلك، لا يبدو أن أياً من الطرفين يمتلك القدرة على حسم الصراع لصالحه. فالولايات المتحدة، رغم تفوقها العسكري، لا تستطيع إنهاء قدرة إيران وشبكة حلفائها على تهديد أمن الملاحة البحرية إلا بثمن استراتيجي واقتصادي باهظ. وفي المقابل، تدرك طهران أن قدرتها على إرباك المصالح الأمريكية لا تعني امتلاكها القدرة على فرض إرادتها الجيوسياسية أو دفع واشنطن إلى التخلي عن التزاماتها ومصالحها الإقليمية.

ومن هنا، يبدو أن الشرق الأوسط قد دخل بالفعل مرحلة جديدة من حروب الاستنزاف البحري، حيث يسعى كل طرف إلى رفع كلفة المواجهة على خصومه من دون الوصول إلى حرب شاملة. إلا أن هذا النوع من الصراعات يحمل مخاطر جسيمة، لأن أي خطأ في الحسابات أو حادث محدود قد يؤدي إلى انفجار إقليمي واسع النطاق.

وفي النهاية، فإن أمن مضيقي هرمز وباب المندب لم يعد قضية تخص دول المنطقة وحدها، بل أصبح جزءاً لا يتجزأ من الأمن الاقتصادي العالمي. وإذا استمرت دوامة التصعيد الحالية، فقد يجد العالم نفسه أمام أخطر أزمة بحرية منذ عقود، تعيد رسم خريطة التجارة والطاقة الدولية وتدفع النظام الدولي إلى مرحلة جديدة من عدم اليقين الاستراتيجي، حيث تعود الجغرافيا البحرية مرة أخرى إلى قلب الصراع على القوة والنفوذ في القرن الحادي والعشرين.

○ كاتب وسفير سابق.

طهران وأخطاء الاستمرار في مواجهة مفتوحة

بقلم: عبدالهادي الخلاقيش ○

يرى العديد من المحللين والسياسيين في منطقة الخليج العربي وخارجها أن التحركات والاعتداءات الإيرانية تجاه دول مثل البحرين والكويت والإمارات لا تندرج تحت إطار الدفاع عن النفس، بل تعكس أبعاداً وأهدافاً جيوسياسية وأيديولوجية مختلفة. ففي خضم ما تتعرض له طهران من تدمير شامل لبنيتها العسكرية والاقتصادية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، إلا انها تسعى للخروج من ذلك بمكسب طالما حلمت به ألا وهو بسط النفوذ والهيمنة الإقليمية والسياسية والعسكرية على منطقة الخليج العربي الحيوية والتحكم في ممرها المائي الاستراتيجي الوحيد مثل مضيق هرمز لتعزيز أوراق ضغطها الدولية.

تستخدم طهران العدوان على دول الخليج العربية كورقة ضغط تفاوضية، حيث تحاول إيران نقل صراعاتها وخلافاتها مع القوى الدولية مثل الولايات المتحدة والمجتمع الدولي إلى الساحة الخليجية مستهدفة المنشآت الاقتصادية وحركة الملاحة البحرية وأمن الطاقة العالمي للضغط على المجتمع الدولي لتحقيق مكاسب سياسية أو تخفيف العقوبات، وتُحدد السقوف السياسية والجيوسياسية الراهنة مدى تمادي طهران في عداء واستهداف دول الخليج العربية، وتخضع حساباتها لمعادلة ردع متبادلة وضغوط دولية مكثفة، فرغم الاعتداءات والهجمات الصاروخية والمسيرات الواسعة التي شنتها إيران ضد البنية التحتية والناقلات التجارية لدول مجلس التعاون الخليجي في سياق حربها الأخيرة مع الولايات المتحدة وإسرائيل، فإن ثمة كوابح استراتيجية قوية تمنعها من الذهاب إلى مواجهة مفتوحة بلا نهاية بل هو تكتيك حافة الهاوية.

تُدرك طهران أن أي تماد يقود إلى مواجهة مفتوحة سيعطي الولايات المتحدةً وإسرائيل المبرر الكامل لشن ضربات تدميرية شاملة لا تقتصر على شل قدراتها العسكرية، بل تمتد لتدمير منشآتها النفطية الحيوية مثل جزيرة خرج ومصافي بندر عباس وبوشهر، ما يعني عملياً الانهيار التام والنهائي للاقتصاد الإيراني، كذلك السعي الإيراني لفرض ترتيبات أحادية للسيطرة على مضيق هرمز عبر استهداف السفن يصطدم مباشرة بمصالح قوى عظمى كبرى بما فيها حلفاء إيران مثل الصين والهند وكوريا ودول شرق آسيا التي تعتمد كلياً على تدفق النفط والغاز الخليجي والتمادي الإيراني هنا يعني عزل طهران دولياً حتى من أقرب حلفائها.

الفراغ السياسي الداخلي وصراع القيادة الذي تعيشه طهران بعد مقتل المرشد السابق علي خامنئي وكبار القادة العسكريين وكبار المستشارين في النظام الإيراني أدخل إيران في مرحلة استثنائية من عدم الاستقرار السياسي في قمة الهرم الحاكم، وخاصة مع غياب القائد والموجّه الفلسفي الأوحد للنظام السابق علي خامنئي، وفي ظل عدم وجود ثقة جامعة بنجله المرشد الجديد مجتبى الذي يفتقر إلى إجماع سياسي على توليه القيادة، أضف الى ذلك تشتت القرار السياسي؛ هذا الفراغ حوّل عملية اتخاذ القرار إلى قيادة مشتتة تتقاسمها أجنحة الحرس الثوري ومجلس الأمن القومي، وفي مثل هذه الفترات الانتقالية يميل النظام إلى استخدام القوة العسكرية في الخارج لتصدير أزماته الداخلية وإثبات القوة لكنه يتجنب تماماً الدخول في حرب شاملة قد تطيح بالنظام من الداخل في ظل التفاف شعبي محتقن بسبب كلفة الحروب السابقة وسقوط العملة الوطنية.

من جانب آخر اثبت الصمود الخليجي وتطور منظومات الردع العسكري لدول مجلس التعاون الخليجي نجاحاً مبهراً بعثر حسابات طهران وأحدث صدمة لم تكن تتوقعها، فطهران كانت دائماً ترى أن دول الخليج عبارة عن دول هشة لا تملك القدرة على حماية نفسها، ولكن ما حدث أثبت خطأ التقديرات العسكرية الايرانية حيث نجحت منظومات الردع والدفاع الخليجية في بناء شبكة متطورة متعددة الطبقات تعتمد على التقنيات الحديثة، ومثّل تحولاً جذرياً نحو عقيدة الردع الخليجي المستقل، حيث برهنت دول مجلس التعاون الخليجي على قدرات فائقة في حماية أمنها القومي واستقرارها من خلال الدفاع الجوي الموحد، حيث تمتلك الدول الخليجية استثمارات ضخمة في أنظمة الدفاع الجوي المتقدمة، ما مكنها من حماية أجوائها والبنية التحتية الحيوية باحترافية، كذلك فإن الهجمات الإيرانية حفزت دول مجلس التعاون للتوجه نحو تنويع شبكة تحالفاتها الأمنية والعسكرية مثل الشراكات الدفاعية مع تركيا وكوريا ودول اوروبية وقوى دولية أخرى، ما يقلل من هوامش المناورة والتمادي الإيراني في المستقبل، والهجمات الأخيرة دفعت دول مجلس التعاون إلى إنهاء أي تردد دفاعي والتوجه فوراً نحو تسريع بناء شبكات دفاع جوي وصاروخي متطورة للغاية بالتعاون مع قوى إقليمية ودولية بارزة، ما يجعل أي تماد إيراني مستقبلي مكلفاً عسكرياً وغير ذي جدوى.

من الواضح أن إيران تبحث عن مخرج تفاوضي وذلك من خلال التصعيد بغرض تحسين الشروط، حيث إن كل عمليات القصف والتهديد بإنهاء التفاهمات وهدنات وقف النار المؤقتة هي أوراق تضغط بها طهران لرفع العقوبات الدولية الخانقة عليها وإحياء مسار المفاوضات والخروج من هذه الأزمة بما يحفظ ماء الوجه أمام الشعب الإيراني وأذرعها الإرهابية في العواصم العربية، فإيران تعلم تماماً أن خيار المواجهة المفتوحة سيلغي أي فرصة للحلول الدبلوماسية، وسيضعها في مواجهة عسكرية مباشرة لا تمتلك القدرة على تحمل تبعاتها الطويلة.

ورغم تبني دول الخليج سياسات قائمة على ضبط النفس واحتواء الأزمات لحماية مكتسباتها التنموية والاقتصادية، فإن تجاوز طهران الخطوط الحمر قد يدفع العواصم الخليجية نحو خيارات ردع عسكرية وأمنية جماعية غير مسبوقة، وكما يُقال يمكن لإيران أن تتمادى في ممارسة الضغوط عبر وكلائها أو استخدام التهديدات والمناوشات البحرية والصاروخية المحدودة، لكنها لا تستطيع تجاوز السقف الذي يفجر حرباً إقليمية شاملة أو يؤدي إلى قطع دائم لإمدادات الطاقة العالمية نظراً إلى الكلفة الوجودية الارتدادية التي لن تتمكن طهران من تحملها.

○ باحث وكاتب صحفي.

ما معنى أن يبكي الفيلسوف إدجار موران على غزة؟

بقلم: د. رفيف رضا صيداوي ○

خلال مشاركته كضيف شرف في الدورة الثانية لمهرجان الكتاب الإفريقي في مراكش (FLAM) في فبراير 2024، لم يكن بكاء الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي إدجار موران (1921–2026) بكاء عاديا.

فهذا الرجل الذي نيف على المائة عام (ناهز عمره آنذاك 103 سنوات)، لم يبك غزة فحسب، بل بكى ظلم عالم وعدم عدالته، هو الذي طالما دعانا إلى أن نكون واعين بتراجيديته وبتراجيدية مصائرنا فيه؛ كيف لا وهو الذي، بحسب كاتب سيرته الذاتية إيمانويل لوميو بعنوان: «أكثر من مائة عام ليصبح إدجار موران»، تكونت حياته «من حيوات متعددة، متشابكة مع مآس وأحداث غير مسبوقة، وشعر غير متوقع، ولقاءات حاسمة. معالم، وإشارات، وتفاصيل مسيرة استثنائية».

بكى صاحب الفكر الحر و«المركب» وهو يحدس بالتقدم العلمي والتكنولوجي الهائل وبالكارثة البشرية الشاملة: «نحن نسبح في عصر غامض، ومشتبه فيه بحيث لن يكون بإمكاننا أن نتوقع ما سيحدث؛ نعيش مغامرة مجهولة كالسائرين نياما...»، (من حوار «المجلة الفلسفية» الفرنسية، العدد رقم 151 – أغسطس 2021).

فمع استشرافه عتبات الألفية الثالثة، وما رافق ذلك من تصاعد لحمى التسلح، ومن صواريخ تخترق الكوكب، ونجاح العقل البشري في مد بصره إلى أقاصي الكون السحيق وصولا إلى أعمق نقاط الزمان والمكان، بما يشي بتقدم علمي وتكنولوجي غير مسبوق، توالت دعواته إلى تأمل هذا التغول المتعدد الأوجه، اقتصاديا وتكنولوجيا وعسكريا.. إلخ، في زمن صار يشهد ميلا أكبر لدى المثقفين نحو التقوقع داخل مجالاتهم المعرفية والنأي «عن أفكار ذات قيمة مدنية أو اجتماعية أو سياسية»، أو حولوا بالتزاماتهم الحزبية «الأفكار إلى بارود للمدافع» أو غدوا نجوما إعلامية يبيعون «الأفكار الرائجة في الاستهلاك» (إدجار موران، مقدمات للخروج من القرن العشرين).

إدجار موران الفرنسي اليهودي الذى عايش النازية والشيوعية وأشكالا من التعصب والاضطهاد الدينيين، وامتدت مسيرته كسلسلة من المقاومات، بدءا من مقاومته السرية للنازية خلال الحرب العالمية الثانية، مرورا بالشيوعية كخلاص، من خلال انتسابه إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عشرة أعوام (1951–1941)، رفض أن يكون الحزب مقصلة لفكره النقدي؛ إذ حافظ على فكره الحر، وجاهر به مناهضا النهج الستاليني وانحراف دكتاتورية البروليتاريا إلى دكتاتورية الحزب الواحد قبل أن يصار إلى طرده، وهو ما وثقه لاحقا في كتابه الشهير «النقد الذاتي» (1959) Autocritique، مستكملا ثورته، حتى لحظة وفاته، على مختلف أشكال الاستبداد والدوغمائية والتعصب انطلاقا من فكره «المركب» الذى خصص له كتابه الشهير «مدخل إلى الفكر المركب»(1990) Introduction à la pensée complexe.

هذا الفكر الذي شكل عماد مشروعه الفكري الموسوعي الفذ «المنهج 2004 –1977 La Methode»، الرافض للتفكير التبسيطي والاختزالي، أو للرؤى أحادية الجانب، الطامح إلى معرفة غير منقطعة عن الحياة الاجتماعية، لا ترسم حدودا صارمة ونهائية بين التاريخي والميتافيزيقي، بين الفرد والمجتمع، بين العلم والدين، بين الخطأ والصواب.. إيمانا منه بالثنائيات المكونة للتجربة الإنسانية. وعن الخطأ والصواب ذكر أنه كوريث لهيجل وماركس طالما ساوره اعتقاد أنه يجب عليه مواجهة التناقضات وتجاوزها، إلى أن ساعده هيراقليطس على إدراك أنه ليس من الضروري تجاوز التناقض للخروج منه، بل بإمكاننا أن نعيش التوترات المتواصلة من دون أن نكون في الخطأ أو في الصواب.

بفكره المركب هذا قارب إدجار موران ظواهر العصر كلها بموسوعية فذة، لأن تفكيك هذه الظواهر وقراءتها لا يستقيمان برأيه من دون تمازج المعارف وتكامل الحقول المعرفية. بذلك، أخرج أطروحته الفلسفية حول «الفكر المركب» من إطارها النظري المجرد إلى أداة عملية لتشريح أزمات العصر (السياسية، الاقتصادية، البيئية، النفسية) غير المعزولة عن بعضها بعضا، بعيدا عن التبسيط والسببية الخطية؛ وبين أن العالم لا يواجه أزمة واحدة، بل «أزمة مركبة» نابعة من مجموعة من الأزمات المتشابكة التي تتغذى من بعضها بعضا، رابطا بين المحلي والكوني، أي «الكل في الجزء، والجزء في الكل»، في عالم بات فيه مصير الفرد في أي بقعة من العالم مرتبطا بما يجري على مستوى الكوكب وبمصير الإنسانية جمعاء.

بفكره المركب أيضا، قرأ إدجار موران العالم الجديد، وخصوصا في كتابه «إلى أين يسير العالم؟2007) ?Ou va le monde) ».

فكره المركب هذا دعمته ثقافته الموسوعية التي قادته على الدوام إلى تبيان المسار المقلق للنظام العالمي الجديد وتداعياته منذ أواخر الألفية الثانية على وجه التحديد، ولا سيما حين يبتعد العلم والتقدم العلمي أو يفترقان عن الأخلاق والإنسانية؛ وهو ما كان قد نبه إليه منذ بداية ثمانينيات القرن الماضي في كتابه «العلم بالوعي» (1982).

كتابه «المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل» أيضا بدا كثورة فلسفية وفكرية واجتماعية في النظرة إلى التعليم بدلا من أن يقتصر على ميدان التربية والتعليم فقط؛ إذ تمثلت إحدى أبرز هذه المعارف السبع في «تعليم الوضع الإنساني»، أي تدريس معنى أن نكون بشرا قبل أي شيء آخر، وهو الأمر الذى لا يستوي مع النزوع الراديكالي نحو تجزيء المعارف، والتخصصات المفرطة في الدقة (والفكر التجزيئي؛ كما لا يستوى مع أزمات كوكبنا وما يشهده من تلوث مناخي وبيئي، لأن المطلوب هو تعليم التضامن البشرى بما يتجاوز حدود الدول (أي نحو المواطنة الكوكبية، وما تحتاج إليه من وعى كوكبي. لذا اعتبر إدجار موران، إلى جانب فلاسفة آخرين مثل إيفان إليتش، وهانس جوناس وسواهم من الداعمين والمؤثرين في مجال الأخلاقيات البيئية الحديثة.

لا غرابة إذا إن بكى الملقب بـ«ضمير الإنسانية» و«ضمير العالم الحي» على ما كان يجري في غزة، واصفا إياه بـ«المأساة المروعة» وبـ«مجزرة تشهدها الإنسانية». فقد عرت دموعه بشاعة ما يحصل، ولم تكن البتة ضعفا أو استسلاما. كيف تكون كذلك وهو الرجل الذي بذل، على مدى قرن، كل جهوده الفكرية وطاقاته للذود عن كينونة الإنسان.. من دون ملل أو كلل، حتى الرمق الأخير.

البكاء مع إدجار موران يعني مواجهة عالم قاس يفترق العلم والتكنولوجيا فيه أكثر فأكثر عن دورهما ومآلاتهما الاجتماعية والسياسية؛ عالم يتجه نحو ذاك الـ«مجهول» الذي دأب على التنبيه من خطورته على البشرية جمعاء.

بكى «ضمير الإنسانية» واقعا يرفضه العقل والضمير. بكى انحرافا عن قيم العدالة والمواطنة العالمية الحقة وعن قيم الثورة الفرنسية (حرية، أخوة، مساواة). بكى صمت العالم، ولا سيما الغربي، حيال ذبح الفلسطينيين وإبادتهم. لكن بكاءه هذا الذي اختلط بصراخ إدانته للكراهية والتعصب وقوى التدمير إنما جاء تتويجا لإيمانه العميق بالإمكانات الخلاقة التي تولد من رحم الأزمات.

إنه إدجار موران الذي ناقض ذات حوار في جريدة «لوموند» الفرنسية مقولة المفكر السياسي الأمريكي فرنسيس فوكوياما في أن القدرات الخلاقة للتطور البشرى قد استنفدت مع الديمقراطية التمثيلية والاقتصاد الليبرالي، معلقا بالقول إن «التاريخ هو الذي استنفد وليس القدرات الخلاقة للإنسانية».

إنه إدجار موران الفيلسوف وعالم الاجتماع الذى لم ينحرف عن مبادئه الكونية ذات النزعة الإنسانية؛ فهو حين ناصر غزة لم ينظر إلى الضحية بناء على انتمائها العرقي أو الديني أو الجهوي، بل ناصر شعبا مظلوما سلبته إسرائيل أرضه وصادرت حياته، متجاوزا بذلك ازدواجية المعايير والمنطق التبريري لجرائم هذه الدولة اللذين انزلق في شراكهما فلاسفة آخرون، فتداعت لديهم الكونية الأخلاقية، أمثال يورجان هابرماس، ولوك فيري، وميشال أونفراي، ورينر فورست وسواهم؛ هؤلاء الذين كشفت «إنسانويتهم» عن امتياز حصري للغرب وعن انحياز تاريخي للمركزية الغربية ومنطق القوة.

إنه إدجار موران الذي أبى إلا أن يكون «ضمير الإنسانية»، انسجاما مع إيمانه الراسخ بالقدرات والطاقات القمينة بإعادة تصويب التاريخ والعمل على «أنسنة» تحولاته.

○ باحثة وكاتبة لبنانية مختصة في علم الاجتماع.

المغامرة الإيرانية وحسابات الصراع الدولي

بقلم: مي عزام ○

شعار «الاستقلال»، الذي رفعته الثورة الإسلامية في إيران عام 1979، ليس مجرد شعار سياسي عابر، بل كان تعبيرا عن ذاكرة تاريخية مثقلة بتجارب التدخل الخارجي وضعف الدولة أمام القوى الكبرى.

فإيران، وفق قراءة الأكاديمي الأمريكي من أصل إيراني، ولي نصر، في كتابه «الاستراتيجية الكبرى لإيران: تاريخ سياسي»، المنشور عام 2025، تستند إلى خبرة تاريخية طويلة تشكلت منذ القرن التاسع عشر، عندما فقدت أجزاء واسعة من أراضيها في القوقاز لصالح روسيا، بعد هزيمتين عسكريتين في عهد الدولة القاجارية، ثم واجهت تصاعد النفوذ البريطاني داخل أراضيها.

هذه التجارب رسخت لدى النخبة الإيرانية قناعة بأن ضعف الدولة يعنى فقدان السيادة، وأن الحفاظ على استقلال القرار السياسي والعسكري يتطلب بناء دولة قادرة على مقاومة الضغوط الخارجية وعدم التحول إلى ساحة نفوذ للقوى الكبرى.

ولهذا اكتسب شعار الاستقلال الذي رفعته الثورة الإسلامية تأثيراً واسعاً لأنه لم يخاطب التيار الديني وحده، بل لامس شعوراً وطنياً متراكماً لدى قطاعات مختلفة من الإيرانيين. ومع مرور السنوات، تحول الشعار إلى عقيدة الأمن القومي الإيراني، فارتبط برفض النفوذ الأمريكي، وبناء القدرات العسكرية المحلية، والاعتماد على الذات في مجال الدفاع، ومواجهة العقوبات والضغوط الدولية.

ويرى الكاتب أن فهم إيران الحالية يتطلب العودة إلى تاريخها السياسي، بما في ذلك تجربة الانقلاب على حكومة محمد مصدق عام 1953، والحرب العراقية الإيرانية، والتدخلات الأجنبية المتكررة. فالسلوك الإيراني، وفق هذا التصور، ليس نتاجاً للأيديولوجيا الدينية وحدها، كما تميل بعض القراءات الغربية، بل هو مزيج من اعتبارات الأمن القومي، والذاكرة التاريخية، والرغبة في الحفاظ على مكانة إقليمية مستقلة.

دخلت إدارة ترامب الحرب على إيران بناء على حسابات خاطئة ومضللة قدمتها أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، وكانت تراهن على سقوط النظام خلال أيام معدودات، بعدها تقوم طهران بتقديم تنازلات كبيرة فيما يخص ملفها النووي والمليشيات المسلحة التابعة في المنطقة، وربما حلم الرئيس الأمريكي بالاستيلاء على النفط الإيراني كما فعل في فنزويلا وحرمان الصين من موارد الطاقة في كلا البلدين.

لكن النتائج جاءت مختلفة، إذ استطاعت إيران، رغم الضربات المؤلمة واغتيال قادتها، عدم الانهيار واستخدام مضيق هرمز كورقة ضغط بالسيطرة عليه والتحكم فيه وإغلاقه، ما جعل الكلفة الاقتصادية للحرب تتزايد على العالم كله.

إن ارتفاع أسعار الطاقة لا يبقى ملفاً خارجياً بالنسبة إلى أمريكا، بل يتحول سريعاً إلى عبء داخلي ثقيل على رئيسها وإدارته، وهو ما يرفع من كلفة استمرار التصعيد العسكري المفتوح.

استمرار الخلافات حول تنفيذ التعهدات المتبادلة في مذكرة التفاهم التي تم توقيعها بين البلدين دفع الطرفين إلى دائرة جديدة من التصعيد العسكري، لتتحول المواجهة من صراع حول ملفات محددة إلى اختبار لقدرة كل طرف على فرض إرادته.

بالنسبة إلى إيران، لا تبدو المعركة مجرد خلاف سياسي أو تفاوضي، بل تبدو صراعاً مرتبطاً ببقاء النظام واستقلال الدولة. ولذلك تراهن طهران على عاملين رئيسيين: الحفاظ على التماسك الداخلي، وإظهار القدرة على تحمل الضغوط والخسائر. لكنها في الوقت نفسه تدرك أن استمرار الصراع له كلفة تتجاوز حدودها، وأن أي مواجهة واسعة لن تدفع ثمنها وحدها، بل ستمتد الخسائر إلى منطقة الخليج والاقتصاد العالمي بأكمله.

○ كاتبة صحفية مصرية.